

المشرفون الراحلون : ٢

الاستشراق في بلاد الانكليز

قبل مرغوليوث

ضربت انكلترة في علوم الاستشراق بسهم وافر . وهي ، وان لم تكن السابقة الى هذه الدروس في اوربة ، إلا انها سريعاً ما نهضت الى مجارة الدول الغربية في علوم الشرق . فخرجت كبار المستشرقين العالمين منذ القرن السابع عشر ، وما اسما ادمون كاستيل (E. Castell) وادوارد بوكوك (Pococke) الأ الشاهد المقنع على مساهمة الانكليز في هذه العلوم الجليلة .

عُرِف كاستيل (١٦٠٦-١٦٨٥) ، اول اساتذة الغربية بجامعة كبريدج ، بمعجمه المشهور الذي لم يقتصر على اللغة العربية ، بل توسع فيه حتى جعله شاملاً للغات السامية ، ونشره سنة ١٦٦٩ ، بعد ان اشغل في اعداده ثلثي عشرة سنة . فاقى عامه الأول من نوعه ، وظل مدة طويلة مرجع الابحاث اللغوية البامية .

اما بوكوك (١٦٠٤-١٦٩١) استاذ الغربية في جامعة اكسفردي ، فقد فاقت شهرته شهرة زميله الكبرديجي . درس العربية في بلاده فلم يكتب بذلك ، بل شا . مزيد تطلع وتمتق فقص الشرق سنة ١٦٣٠ ، واقام في حلب خمس سنوات استفاد في اثناها معارف واسعة ، ومخطوطات عديدة . وكانه أصيب بالاستشراق البلدي مع الاستشراق العلمي ، فما كاد يصل الى اكسفردي ورتقي المنبر الجديد لتعليم الغربية ، حتى رأيناه يزمر رحاله سنة ١٦٣٧ فيعود الى حلب ،

متريداً من المعلومات ومن المخطوطات كذلك ، قاضياً اربع سنوات في الدرس والتنقيب . حتى اذا كانت السنة ١٦٤١ رجع الى انكلترة حاملاً ، في جملة ما حمل ، شجرة تين نصبها في حديقة اكفرد فكانت ، ولا تزال ، اول شجرة من نوعها في بلاد الانكليز.^{١١}

اما الآداب العربية فمدينة ليوكوك باول طبعة لكتاب «مختصر الدول» لابي الفرج بن العبري ، وبمجموعة من ٤٢٠ مخطوطة ، لا تزال في مكتبة اكفرد هدفاً لباحث العلماء ، وبمشرق آخر هو كبير اولاده ادوارد بوكوك (١٦٤٨-١٧٢٧) . تسمى باسم ابيه ، واقتفى أثره في اختصاصه .



ويرى القرن الثامن عشر تقدم الدروس الاستشراقية في انكلترة . فنشهد سيمون اوكلي (Ockley) (١٦٧٨-١٧٢٠) ، تلميذ بوكوك ، يدرس العربية في جامعة كبريدج ، ويترك ترجمة انكليزية لحي بن يقظان . وتنقل مع جورج سيل (Sale) (١٦٩٧-١٧٣٦) في درس العقائد الاسلامية ، فنطبع على اول ترجمة اوربية كاملة للقرآن سنة ١٧٣٤ . و تنتقل مع السروليم جونز (Jones) (١٧٤٦-١٧٩٤) الى بلاد الهند ، مؤلفاً في كلكتوتا جمعية اسبوية ، بادئاً عهد الدروس السنسكريتية ، بعد ان نشر ترجمة انكليزية حسنة للملقات السبع . ونهيم على على اثر بوركهارت (Burchardt) (١٧٨٤-١٨١٧) السويسري الأصل من حلب ، الى مصر ، فالى الجزيرة العربية ، فالى مصر وشمالى السودان ، تاركاً مؤلفاً نفيساً في «البدو والوهابيين» و«رحلة نوبية» لا تقل نفاسة .



اما القرن التاسع عشر فاقم من يمثل فيه الاستشراق الانكليزي اين (E. W. Lane) (١٨٠١-١٨٧٦) . مال منذ حداثة الى الشرق والاستشراق ، فركب البحر الى الاسكندرية سنة ١٨٢٥ ، فوصلها بعد شهرين ، واقام في

(١) برنارد لويس في «المتبع العربي» ، لندن ، العدد ١١ (ابول ١٩٤٠) ص ١٠ .
وقد خصنا عنه بعض المعلومات .

القاهرة ثلاث سنوات . ثم عاد اليها في رحلة ثانية فاقام فيها سنتين (١٨٣٣-١٨٣٥). وقد استفاد في الرحلتين معارفات جمة واختبارات كثيرة سهّلت له تأليف كتابه المشهور في « اخلاق المصريين المعاصرين وعاداتهم » . ولعل أشهر ما ترك لين معجده العظيم العربي - الانكليزي الذي انفق في سبيله ربع قرن ولم يتوقف الى اتمامه .

ونشأ الى جنب لين عدد من مستشرفي الانكليز ، اشهرهم في حقل الدراسات العربية بلنت (W. S. Blunt) (١٨٤٠-١٩٢٢) الذي مال الى الاضطلاع بالحركات السياسية الناشئة في الشرق الادنى ، فاتصل بجمال الدين الافطاني وعراقي باشا ، وقضى آخر حياته في القاهرة لا يلبس إلا اللباس المصري ، ولا يتكلم إلا العربية . ثم شارل دوتي (Doughty) (١٨٤٣ - ١٩٢٦) الرحالة المشهور الذي لا يزال كتابه عن رحلته الى بلاد العرب من اهم المصادر . وتوماس ارنولد (Arnold) استاذ الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، والمتوفى سنة ١٩٣٠ . وغي لوسترانج (Le Strange) صاحب « بغداد ايام الباسيين » و« بلاد الخلافة التركية » المتوفى سنة ١٩٣٤ ، بعد ان كَفَّ بصره منذ السنة ١٩١٢ . وفي السنة نفسها توفي بيثن (A. A. Bevan) ، ناشر «نقائض جبرير والفرزدق» . ويجب ان نذكر لايل (Lyall) ناشر المفضليات ، ولين-بول (Lane-Poole) من كبار المؤلفين في التاريخ الاسلامي . وآخر من فارق هذا العالم منهم دواود صموئيل مرغوليرث .





داود صموئيل مرغوليث

١٨٥٨-١٩٤٠



لا مقالات في القول ان
مرغوليث كان في اثنا
ال ٣٥ سنة الماضية ، إمام
المشترقين لدى العام
والخاص في بلاد الانكليز .
فانه بفضل منشوراته العلمية ،
وعلومه الواسعة ، وشخصيته
البارزة ، والمركز الذي

شغله في الجمعية الآسيوية الانكليزية (R. A. S.) ، كان يُعدّ في عالم
الاستشراق باجمه ، ممثل الدروس الشرقية في بريطانيا العظمى . فضلاً عن ان
مدة تدريسه تلك العلوم في جامعة اكفرد الشهيرة قد طوّرت صيته في جميع
الاراسط حتى الى اقاضي البلاد الاسلامية الشرقية ، وأدخلت اسمه في عالم
الاسطورة .



ولد مرغوليث سنة ١٨٥٨ . ونشأ في جامعة اكفرد . فدرس فيها كثيره
الآداب المدرسية القديمة . ولم يظهر براعته في اللغة العربية حتى نشر الترجمة العربية
بكتاب اريطو في الشعر سنة ١٨٧٨ . وكان ان هذا البحث لفت انظار
المشترقين فمّين مرغوليث استاذًا في الجامعة نفسها لتدريس اللغة العربية . وقام

حينئذ، فتم نشر نتيجة من الابحاث العلمية اهمها ما نشره سنة ١٨٩٣ من مخطوطات البردي الموجودة في مكتبة اكفرد الشهيرة (Bodleian Library).
واهتم بعد ذلك بان نقل الى الانكليزية قسماً من تفسير القرآن لليضاوي،
ورسائل ابي العلاء. سنة ١٨٩٨، فبرهن على تضلعه من اللغة العربية، وعلى براعة
غير عادية في حل بعض النوازل العويصة.

وفي ١٨٩٦ تزوج مرغوليوث جنتي پايث سيث Jessie Payne Smith
بنت العالم الشهير باللغة السريانية، فعاونها سنين طويلاً على نشر كتاب والدها
«الكثرت السريانية» (Tbesaurus Syriacus). ومع هذا العمل فانه لم يكف
عن متابعة ابحاثه الشخصية، فنشر منها عدداً من الدروس الانتقادية، في ما
جاء في التوراة.

وفي ١٩٠٥ ظهر كتابه المعروف *Mohammed and the rise of Islam* اي
«محمد وضحي الاسلام» نُشر في مجموعة *Heroes of the Nations* اي «كبار
الرجال وابطال الامم» فلفت اليه انظار العالم واشتهر به المؤلف اختصاصياً في
الشؤون الاسلامية. وتلاه بعد ذلك سنة ١٩١١ كتابه الآخر *Mohammedanism* اي
«الدين المحمدي» ثم سلسلة من المحاضرات القيمة في موضوع اتساع الدين المحمدي
عند ظهوره (*Early developpment of Mohammedanism*) نشرت سنة ١٩١٤
مع عدد غير يسير من المقالات المختلفة في كثير من المجالات ودرائر المعارف
(*Encyclopedies*) وقد نالت هذه الكتب الثلاثة استحساناً كبيراً لدى الجمهور
وحازت نجاحاً باهراً، فكانت المثال الأعلى في بلاد الانكليز لما يصبح قوله في
هذه المواضيع. اما المستشرقون فلم يحل رأيتهم من بعض الانتقاد. وهم، وإن
كانوا يجمعون الرأي على الاعتراف باقتدار المؤلف وعلمه المتين وسعة اطلاعه
النربية في الشؤون الاسلامية، لا سيما في كتابه الثالث الذي جاء فيه بايضاحات
وحلول جديدة لمسائل كانت غامضة من قبله، إلا انهم لم يرتاحوا لما كان يظهر
في لهجته من الاستهزاء وقلة الاعتبار، مما اثار ايضاً غضب القراء المسلمين في القرب
والشرق. وهذا الروح كان يدعو الى التحفظ امام الآراء التي كان يُبدئها، كلما
كان الحكم منوطاً بشعور المؤلف وبمنظريته الخاصة.

وجاء كتابه الأخير في السنة ١٩٢٤ عن العلاقات بين العرب وبني إسرائيل (*Relations between Arabs and Israelites*) فعرضه للتقد نفه مع ما جمع فيه من المعلومات الواسعة والوثائق المثينة من رقم حجرية وتقاليد أدبية قديمة. ورغم ان المنتقدين كانوا أقل منه علماً ومكاناً، لم يلبث ان أثر انتقادهم في وضعيته، فعدّل موقفه نوعاً ما بالتدريج. وكان هذا العدول بيناً في رجوعه عما كبه في مقال نشره سنة ١٩٢٥ في مجلة الجمعية الاسيوية *J. R. I. S.* جاء فيه ان لا صحّة على الاطلاق للشعر الجاهلي^(١). وقد كان التعجب عاماً من هذا الرأي، وان لم يعبر المستشرق عنه دائماً. واما نظريته في هذا الشأن فلم تكن راکزة على البراهين التي تقدمتها في المقال، ولكن على رأي خاص في النظم كان قد عرضه في كثير من مقالاته الاخرى. ومع انه لم يقرّ قطّ بأصلية الشعر الجاهلي ايّاً كان، فانه لم يبق على رأيه هذا بصورة جازمة، كما يتبين لنا ذلك من ملاحظة ابداءها في مقال له في المجلة نفسها سنة ١٩٢٧ ياطّف فيها موقفه السابق.



شعر مرغوليوث بواجهه الخاصة للاستسراق، وبنوع الابحاث التي تواقفه، اثناء جهوده في تعريب بعض النصوص العربية وضبطها بالنشر. من ذلك ان ذاكرته كانت عجيبة تحضّر له، دون عشاء، المعلومات الواسعة التي جناها في مطالعاته السابقة. فكانت له بذلك، معاوناً لأبحاثه ومنشوراته نادر المثال. واشتهر خاصة في هذا الحقل بنشره كتاب «معجم الادباء» لياقوت. استغرق منه عشرين سنة، من ١٩٠٧ الى ١٩٢٧. ولكن نشره لكتاب الرسائل لابي العلاء، وكتاب «نوار المحاضرة» للتونخي سنة ١٩٢١ كان ادلّ لدى المستشرقين غلى علمه ومقدرته. اما براعته في التعريب فكانت عظيمة تجمع بين دقة المعاني وسلاسة

(١) من هذا المقال استقى الدكتور طه حسين نظريته المرفوضة في كتابه «في الشعر الجاهلي». والحق يقال ان النظريتين كليهما، المستشرق الانكليزي وتلميذه المصري، مدينان في ما في بئسها من نظرات معنولة لابن سلام. راجع فزاد افرام البستاني: الروائع (الطبعة الجديدة) ص ١٧-١٩

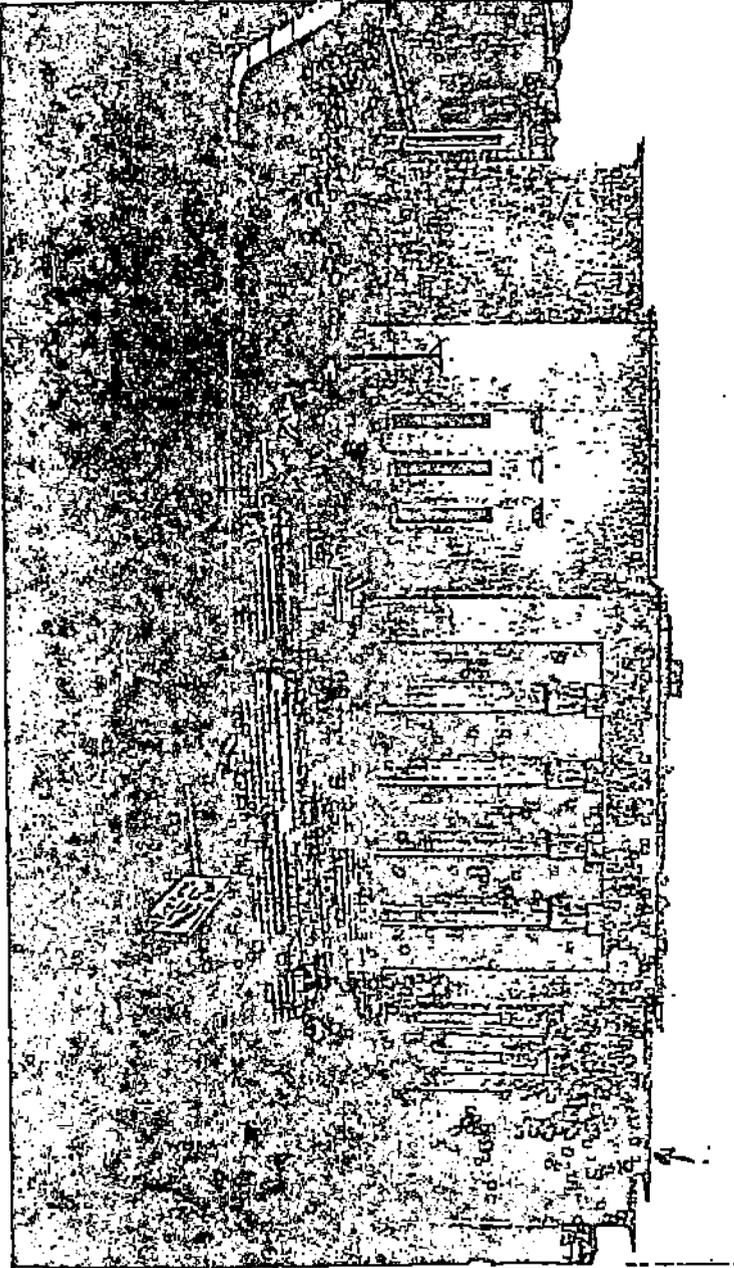
التميز . تجلّى ذلك خصوصاً في تربيته « كتاب الاخبار » لسكويه سنة ١٩٢٠
 و« نشوار المعاصرة » للتزخمي ، و« تلبيس ابايس » لابن الجوزي المنشور حديثاً
 في مجلة الثقافة الاسلامية (Islamic culture) .

اما خدماته لمجلة الجمعية الآسيوية الانكليزية J. K. A. S. فلا حاجة الى
 ذكرها . فالوسام الذهبي الذي اهدي له سنة ١٩٣٨ جاء اوضح دليل على ذلك .
 كان اولاً تكريماً لمهارته الجيارة في اجناته العلمية ثم شكراً لاتعابه المصروفة في
 خدمة الجمعية مدة ٢٠ سنة عضواً في مجلها ثم نائب رئيس ، ورئيساً . وكان
 مرغوليوث عضواً في الاكاديمية الانكليزية ، ودكتوراً في الآداب من جامعة
 درهام ، وعضواً في جمعية المستشرقين الالمانية . وقد زار سراراً الشرق الادنى
 فاستقبله هناك كبار المسلمين بالحفاوة الشرقية المبرودة ، ورغم اختلاف مذهبه عن
 مذاهبهم . وعندما أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢٠ ، كان
 مرغوليوث من اول اعضائه الاجانب . وقد دعته جامعة كلكتا في الهند سنة
 ١٩٢٩ الى القا . محاضرة هناك .

كبري

كان مرغوليوث لا يفتن بعمله وبوقته على احد . وكان كثير التشجيع
 لتلاميذه حتى كان يؤمل منهم اكثر من المنتظر . وقد حقق البعض آماله بنجاحهم .
 وكان يبدو لمن لا يعرفه كالظم الوجه صارم الهيئة ، ولكن هذه الظواهر كانت
 تزول عند التقدم في معرفته ، فيجد فيه الجميع صديقاً ودوداً ورجلاً لطيفاً انياً .





الرسم ١ : واجهة دار الأمان